

هذا الملك أو ذاك من ملوك الجن، ولم يكونوا ينتظرون أن يحاربوا ملوك الجن جميعاً، وهم كانوا قد ألفوا أن يستعدوا للشر يأتيهم من الجو أو يأتيهم من البر أو يخرج لهم من البحر أو ينجم لهم من الأرض، ولكنهم لم يألّفوا أن يأتيهم الشر من هذه الوجوه كلها في وقت واحد؛ فلم يكن أمرهم سهلاً ولا تشاورهم رفيقاً.

وكانت فاتنة مع ذلك تنظر إليهم وتسمع منهم غير حافلة ولا مكترثة. على أن شيئاً من الرثاء بلغ نفسها القاسية آخر الأمر فقالت لأبيها: «ارفق بنفسك وبهؤلاء القادة والساسة يا أبت، فلست في حاجة إلى كل هذه الخطط التي تدبرونها وتقذرونها وتديرون فيها الحوار. إن مملكتنا معرضة لشر لا قبل لها به، فإما أن تنجح خطتي التي رسمتها والتي لا تعلمون منها شيئاً، وإما أن نهلك جميعاً دون أن تبقى لنا باقية.»

قال الملك وعلى ثغره ابتسامة مُرّة خير منها العبوس: «هو ذاك يا ابنتي؛ فإنك لا تنبئينني بشيء أجعله، ولكني لا أحب أن أؤخذ على غرة أو أن أوتي من تقصير، فلأجاهد ما استطعت إلى الجهاد سبيلاً، ولأعذر ما وجدت إلى الإعذار طريقاً، وليجر القضاء بعد ذلك بما شاء!»

وما كاد الملك يفرغ من كلامه هذا حتى تغير من حوله كل شيء، فإذا الأرض تميد، وإذا الجو يكفهر، وإذا ظلمة قاتمة تريد أن تأخذ المدينة من جميع أقطارها، وإذا سحب متراكمة متراكبة تظهر في السماء مرسلّة في الجو بروقاً خاطفة ورعوداً قاصفة، وإذا الوزراء والساسة يذهلون عما حولهم، وإذا القادة ينصرفون كلّ إلى موضعه من قيادة الجيش، لعله يعمل عملاً أو يبلي بلاء. والملك ثابت مكانه لا يريم، ناظر أمامه لا يحول طرفه إلى يمين وشمال، وقد جمدت على ثغره ابتسامة كانت حائرة فاستقرت في مكانها، كأن نفس الملك لم تجد قوة ولا وقتاً للتفكير أو التقدير فضلاً عن الابتسام أو العبوس.

وفاتنة باسمه كأن شيئاً لم يتغير من حولها، وكأن حدثاً لم يحدث، وإنما هي قائمة كعهدها آنفاً حين كانت تنظر إلى أبيها في كثير من الرحمة والحب وفي كثير من الإكبار والإجلال.

على أن صوتاً هائلاً يملأ ما بين الأرض والسماء فجأة، فتهتز له جنبات القصر، ويثب له الملك ومن معه من أصحابه كأنما دفعتهم اللوالب في الفضاء، وإذا هم يسرعون إلى الأطناف يشرفون منها لا يدرون كيف أسرعوا ولا كيف دفعوا، وإنما يرون أنفسهم مشرفين ينظرون وكأنهم لا يرون، ويصغون وكأنهم لا يسمعون لكثرة هذه الجماهير التي أقبلت إلى القصر فزعة جزعة تجأ بالاستغاثة وتمعن في الضراعة، وقد استيقنت مخطئة أو مصيبة أنها ستجد عند الملك أمناً من هذا الخوف وَوَزَراً من هذا الفزع.